

العلاقة بين صلاح الدين الأيوبي ونور الدين زنكي

محمود فائز السرطاوي

الملك الناصر صلاح الدين يوسف، والملك العادل نور الدين محمود، هما من أبرز أبطال الجهاد في عصر الحروب الصليبية، وعندما نتحدث عن العلاقة بين البطلين المسلمين، لا بد أن نعود إلى أصل هذه العلاقة؛ فنجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، وعمه أسد الدين شيراكوه المنحدران من أصل كردي، دخلا في خدمة عماد الدين زنكي والد نور الدين، واختارهما عماد الدين لذكائهما النادر وشجاعتهما الفذة، وبعد مقتل عماد الدين سنة 541 هـ، انتقل نجم الدين وأخوه أسد الدين إلى خدمة صاحب حلب نور الدين محمود.

وكان نجم الدين أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق، وهو ممن ساعد نور الدين على ملك دمشق سنة 549 هـ، وكانت له منزلة عالية عند نور الدين⁽¹⁾. قال ابن الأثير: « ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس، إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه كأسد الدين شيراكوه ومجد الدين بن الداية وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده، يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالعود »⁽²⁾.

ولد صلاح الدين سنة 532 هـ⁽³⁾، ونشأ في كنف أبيه في ظل الزنكيين، وتلقى في بلاط نور الدين دروس الجهاد واقتدى به، حيث كان نور الدين من الحكام المشهود لهم بحسن السيرة، وصدق العزيمة، وحب الاسلام، والاعتناء بالمسلمين.

تحدث أبو شامة عن سيرتي نور الدين وصلاح الدين، واعتبر نور الدين قدوة لصلاح الدين، فقال: « وجدتهما في المتأخرين، كالعمرين - رضي الله عنهما - في المتقدمين، فإن كل ثان من الفريقين حذا حذو من تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أي

(1) انظر كتاب الروضتين 330/1، والباهر 120، والمختصر في أخبار البشر 64/5.

(2) كتاب الروضتين 23/1، والباهر 172، والبداية والنهاية 281/12.

(3) الكواكب الدرية في السيرة النورية 107.

اجتهاد»⁽⁴⁾، ويقول في موضع آخر : « فلله درهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل غي، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية »⁽⁵⁾.

ومما يجدر ذكره أن نور الدين ولد سنة 511 هـ، وتوفي سنة 569 هـ، وأن صلاح الدين ولد سنة 532 هـ، وتوفي سنة 589 هـ. فكان نور الدين أسنَّ من صلاح الدين بسنة واحدة، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فبين وفاتيهما عشرون سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرون سنة، وملك نور الدين دمشق سنة 549 هـ، وملكها صلاح الدين سنة 570 هـ، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة وفي الصلاحية تسع عشرة سنة.

وقد رأى نور الدين في صلاح الدين مخايل النجابة والشجاعة، وأعجب بمهارته وخفة حركته عند اللعب بالسيف والرمح. وكان نور الدين يلعب مع كبار قواده ورجال دولته، ومنهم صلاح الدين، لعبة الصوالج، وهي من أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين زمن الحروب الصليبية⁽⁶⁾.

وفي سنة 560 هـ فوض نور الدين شحنكية دمشق إلى صلاح الدين، فأظهر السياسة وهذب الأمور⁽⁷⁾.

وقد مدح عرقله الكلبي صلاح الدين، وحثه على ملك مصر، ومما قاله فيه :

إلام ألام فيك وكم أعادى وأمرض من جفاك ولن أعادى
ومنها :

لئن أعطاه نور الدين حصناً فإن الله أعطاه البلاداً
إلى كم ذا الذواني في دمشق وقد جاءتكُم مصرٌ تهادى⁽⁸⁾

وعندما تولى صلاح الدين أمر مصر، نائباً عن نور الدين فيها، وذلك بعد وفاة عمه أسد الدين شيراكوه، بدا التعاون بينهما، وكانا ينسقان من أجل مجاهدة العدو وتوحيد البلاد الإسلامية، ففي الوقت الذي استولى فيه نور الدين على الرقة والخابور ونصيبين في الشام⁽⁹⁾، أغار صلاح الدين على أعمال عسقلان والرملة وغزة⁽¹⁰⁾، وقد ظهر هذا التعاون العسكري في

(4) كتاب الروضتين 5/1.

(5) المصدر نفسه 6/1.

(6) انظر المصدر نفسه 18/1-19.

(7) النجوم الزاهرة 367/5.

(8) انظر ديوان العرقله الكلبي / 30-32.

(9) انظر كتاب الروضتين 476/1.

(10) انظر الكامل 365/11.

رسالة للقاضي الفاضل منها : « لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعد كان انعقد بينه وبين نور الدين - رحمه الله تعالى - في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشام، المملوك بعسكري برّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشام وعمره ... الخ⁽¹¹⁾ ».

وكان نور الدين يتطلع لفتح بيت المقدس، حيث « عمل منبرًا وقبلة بجامع حلب على اسم القدس، ولكنه توفي قبل فتح القدس، فلما ملك صلاح الدين بيت المقدس حمل المنبر إليه، وأبقى القبلة بجامع حلب »⁽¹²⁾. ولا شك في أن العقيدة الإسلامية هي التي وحدتهما باتجاه هدف مشترك.

وقد كان صلاح الدين في مصر مثال القائد المخلص الذي يطيع سيده وينفذ أوامره، ويتضح ذلك من الأمر الذي أسقط بموجبه نور الدين المكوس بمصر، حيث قرىء على المنبر بالقاهرة سنة 567 هـ منشور بإسقاط المكوس، يقول أبو شامة عن نور الدين : « فهو كان الأمر وذاك المباشر »⁽¹³⁾.

وامتثل صلاح الدين لأمر نور الدين بقطع الخطبة للفاطميين بمصر⁽¹⁴⁾، وكان سقوط الخلافة الفاطمية في مصر من أهم الأحداث السياسية يومئذ، لأن نور الدين كان يرى في ذلك بداية الطريق نحو تحرير بيت المقدس.

بعد ذلك كله لا بد من أن نتوقف مُطَوَّلًا عند خبر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين، ذلك الخبر الذي ذكره بعض المتقدمين، ونقله عنهم كثير من المتأخرين؛ فقد روى ابن الأثير وذكر أبو شامة نقلًا عن ابن أبي طي الشيعي أسباب الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين، التي ابتدأت سنة 567 هـ، وذلك عندما اتفقا على حصار الكرك، ورجع صلاح الدين إلى مصر، قبل أن يلتقي بنور الدين⁽¹⁵⁾.

وأخذ عن ابن الأثير وابن أبي طي عدد من المؤرخين⁽¹⁶⁾، وتبعهم بعض المؤلفين المعاصرين دون تمحيص، وغالوا في تعليلاتهم وتفسيراتهم لأسباب الوحشة ونتائجها، فوصفوا العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين وكأنها علاقة عدائية، ومن ذلك : أن كل واحد منهما بات يخاف صاحبه، وأن صلاح الدين أصبح يسعى للتخلص من سيادة نور الدين، ويحبذ أن تظل

(11) انظر الرسالة في الروضتين 624/1.

(12) الكواكب الدرية / 57.

(13) انظر المنشور في الروضتين 523-522/1.

(14) الكامل 368/11، وزبدة الحلب 333/2.

(15) انظر التفصيل في أسباب الوحشة في الكامل 373-371/11، والباهر / 158-159 والروضتين

585-581، 520-518/1.

(16) انظر زبدة الحلب 336-335/2، والسلوك لمعرفة دول الملوك 49-48/1.

منطقة الكرك فاصلاً بينه وبين نور الدين، ونور الدين فكر في أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين وصلاح الدين إلى مصر، ووصف نور الدين بأنه خصم خطير لصلاح الدين ... وما إلى ذلك⁽¹⁷⁾.

وأرى أنه من المستبعد أن تكون هناك وحشة تؤدي إلى علاقة عدائية بين نور الدين وصلاح الدين، فتفسيرات ابن أبي طي فيها كثير من التحامل على نور الدين وعلاقته بصلاح الدين، بسبب تشييعه، ولأن نور الدين أذل الشيعة وأبطل شعارهم⁽¹⁸⁾ ويروي لنا ابن الأثير أن نور الدين اختار أسد الدين وصلاح الدين دون غيرهما، وألح عليهما في الذهاب إلى مصر⁽¹⁹⁾.

وأرسل نور الدين تقليدًا لصلاح الدين، واستقر مستوليًا على مصر نيابة عن نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها⁽²⁰⁾.

وكان صلاح الدين يجهز الأموال والهدايا ويرسلها إلى نور الدين في الشام⁽²¹⁾. والعماد الأصفهاني الذي كان على صلة وثيقة بنور الدين وصلاح الدين يقول: « كان صلاح الدين لا يخرج عن أمر نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين »⁽²²⁾.

وكتب العماد إلى صلاح الدين قصيدة مدحه فيها، وذكر أنه المعاضد والمؤازر لنور الدين قال منها :

واسلم لنور الدين سلطان الورى في الحادثات معاضداً ومؤازراً⁽²³⁾

ويقول أبو شامة بأنه وقف على كتاب « بخت نور الدين يشكر فيه صلاح الدين، وذلك يتعارض مع ما قاله ابن أبي طي، وقد كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عسرون وهو بحلب؛ ليوليه قضاء مصر ومما قال فيه : « وقد كتبت هذا بخطي حتى لا يبقى علي حجة، تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم إلى مصر والسلام، بموافقة صاحبي صلاح الدين وفقه الله، فأنا أشكره كثيراً كثيراً، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم، ومنفعة لأهل الاسلام »⁽²⁴⁾.

(17) انظر أدب الحروب الصليبية / 49، وموسوعة التاريخ الاسلامي / 174، 177، وخطط الشام 41-42، ونور الدين (إليسیف) 681/2.

(18) انظر الروضتين 441/1، والكواكب الدرية / 181-182، وصلاح الدين الأيوبي / 88.

(19) انظر الباهر / 141، والروضتين 394/1.

(20) الباهر / 141، وبدائع الزهور 237/1، والنجوم الزاهرة 355/5.

(21) السلوك لمعرفة دول الملوك / 50، 54، وزبدة الحلب 338-339، والكواكب الدرية / 216.

(22) سنا البرق الشامى 141/1، وكتاب الروضتين 503/1.

(23) ديوان العماد / 159، وكتاب الروضتين 379/1.

(24) انظر الكتاب في الروضتين 442-443.

وأورد أبو شامة كتاباً آخر ظهر فيه ولاء صلاح الدين لنور الدين، أرسله صلاح الدين إلى نور الدين، من إنشاء القاضي الفاضل، وكان صلاح الدين قد نزل على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون، فبرح فيها وخرب عماراتها، وأغارت سراياه على أعمالها، ونصّ الكتاب : « سبب هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزّ الله سلطانه، ومدّ أبداً إحسانه، ومكن بالنصر امكانه، وشيّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه. علم المملوك بما يؤثّر المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّر أجنتهم، ويقلل أسلحتهم، ويقطع موادهم، ويخرب بلادهم ... إلخ » (25).

ولقد كانت علاقة صلاح الدين بنور الدين حسنة، ولا سيما بعد تنفيذ صلاح الدين أوامر نور الدين بقطع الخطبة الفاطمية.

وعندما اعتذر صلاح الدين وعاد عن الكرك إلى مصر، كان يدرك ما يمكن أن يحدث في مصر، ولم تكن عودته هروباً من واجبه أو خوفاً من لقاء نور الدين، ففي « رمضان سنة تسع وستين وخمسائة قصد جماعة من أعيان المصريين الوثوب عليه وإعادة الدولة العلوية، ولكنه علم بهم وصلبهم عن آخرهم » (26).

وقد كتب القاضي الفاضل كتاباً مطوّلاً إلى نور الدين، يشرح فيه قضية المصلّبين، ومنه : « لم يزل يتوسم من جند مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله من بدعتهم، ونقض من عرى دولتهم، وخفض من مرفوع كلمتهم أنهم أعداء، وإن تعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام ... إلى أن يقول : لا تخلو سنة تمرّ، ولا شهر يكرّم مكرّ يجتمعون عليه، وفساد يتسرعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدة يتممونها، وكان أكثر ما يتعلّلون به ويستريحون إليه، المكاتبات المتواترة والمراسلات المتقاطرة إلى الفرنج - خذلهم الله تعالى - التي يوسعون لهم فيها سيل المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ... إلخ » (27).

وفي كل الأحوال لم تصل علاقة نور الدين بصلاح الدين إلى درجة العداء، ولا مسوّ لاعتبار الاختلاف في الرأي وحشة ونفرة كما يقرر ذلك عدد من المؤرخين والكتاب، وكل ما هنالك أن نور الدين كان يتطلع إلى مصر على أنها مصدر للواردات يسد بها نفقات الجهاد ضد الصليبيين في الشام، وأنها مصدر للطاقة البشرية والمقاتلة.

وكان صلاح الدين أكثر معرفة من نور الدين لما يجري في مصر من أخطار ناجمة عن استعداد أنصار الفاطميين للانضمام إلى الفرنج، فوجه اهتمامه إلى بناء جيش جديد على درجة من القوة، بحيث يستطيع السيطرة على مصر، ورأى أن تثبيت كيان الدولة الجديدة في مصر أولى من الانشغال بمسائل الشام (28).

(25) انظر الكتاب في الروضتين 526/1-527.

(26) المختصر في أخبار البشر 74/5.

(27) انظر الكتاب في الروضتين 562/1-566.

(28) انظر صلاح الدين الأيوبي / 121، وسياسة صلاح الدين / 115-116.

وهذا يتفق مع ما قاله نور الدين للرسول الذي بعثه صلاح الدين يعتذر عن موقفه من حصار الكرك، حيث قال : « حفظ مصر أهم عندنا من غيرها »⁽²⁹⁾.

وعندما بلغ صلاح الدين خبر وفاة نور الدين، أرسل كتابا إلى الشام من إنشاء القاضي الفاضل، أظهر فيه مدى تأثره واهتمامه لدى سماعه الخبر، وإيمانه بقضاء الله وقدره، وحرصه على وحدة المسلمين للوقوف في وجه العدو الصليبي، وبين استعدادة للوقوف إلى جانب الملك الصالح إسماعيل ولد نور الدين، ومناصرته إكراما لوالده، ومنه : « ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونور بعافيته القلوب والوجوه، فاشتد به الأمر، وضاق به الصدر، وانقسم بحادثه الظهر ... إلى أن يقول : فكونوا يدا واحدة، وأعضادا متساعدا وقلوبا يجمعها الودّ، وسيوفا يضمها غمد، ولا تختلفوا فتتكلوا ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأئمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الايمان، ولهذا البيت منا ناصر ... فحن لهذا الولد يد على من ناواه، وسيف على من عاداه، وإن أسفر الخبر عن معافاة فهو الغرض المطلوب والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب »⁽³⁰⁾.

فنور الدين استطاع أن يوحد بلاد الشام، وبعد ذلك استطاع ضمّ مصر، وأصبحت مصر والشام تحت إمرته، وكانت أمنيته (بعد أن وضع الفرنج بين فكي كماشة) أن يكمل ما بدأه، ويحرر ما تبقى من بلاد المسلمين بأيدي الصليبيين، ولكن أجله انتهى قبل أن يحقق أمله.

وقد قام بإتمام هذه المهمة من بعده قائده المظفر صلاح الدين الأيوبي الذي انتصر على الصليبيين في كثير من المعارك، وكان أشهرها معركة حطين التي تلاها الفتح الأعظم، فتح بيت المقدس، هذا الفتح الذي هزّ مشاعر المسلمين، والذي طالما تمناه نور الدين وعدّ له. فالعلاقة بين البطالين المسلمين كانت علاقة وفاق وتكامل، ولم تتأثر بوحشة أو تنافر.

(29) انظر الكامل 393/11، وزبدة الحلب 2/339.

(30) انظر الكتاب في الروستين 587/1.

المصادر والمراجع :

- 1 - ابن الأثير (عز الدين) المعروف بابن الأثير الجزري ت (630) هـ :
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، 1963.
- الكامل في التاريخ، ج 10، ج 11، دار صادر - دار بيروت، 1966.
- 2 - أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، ط 4، القاهرة، 1979.
- 3 - ابن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط 1، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الأول، القسم الأول، دار النشر : فرانز شتاينر فيبادن، 1975.
- 4 - البنداري، قوام الدين الفتح بن علي، سنا البرق الشامي، وهو مختصر البرق الشامي للعماد الأصفهانى، تحقيق رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت 1971.
- 5 - ابن تغري بردي، جمال الدين الأتابكي (874 هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (دون تاريخ).
- 6 - جب، هاملتون جب، صلاح الدين الأيوبي (دراسات في التاريخ الاسلامي)، حررها يوسف أبيش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 1973.
- 7 - دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الأيوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة، بغداد، مطبعة الرشاد، 1976.
- 8 - أبو شامة، الحافظ المؤرخ شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي الدمشقي (665) هـ :
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (النورية والصلاحية)، تحقيق محمد حلمي، مراجعة مصطفى زيادة، الجزء الأول : القسم الأول والثاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1956، 1962.
- 9 - عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، ط 1، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد بمصر، 1949، والطبعة الثانية، 1984.
- 10 - ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة، كمال الدين العقيلي الحلبي، المعروف بابن العديم (660 هـ) :
زبدة الحلب من تاريخ حلب، عني بنشره وتحقيقه ووضع فهرسه سامي الدهان (دون تاريخ).
- 11 - عرقلة الكلبي، حسان بن نمير (567 هـ) :
ديوان عرقلة الكلبي، تحقيق أحمد الجندي، مطبعة دار الحياة، دمشق، 1970.

- 12 - العماد الأصفهاني، ديوان العماد الأصفهاني، تحقيق ناظم رشيد، 1983.
- 13 - أبو الفداء، الملك المؤيد اسماعيل، صاحب حماة، المختصر في أخبار البشر، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني - بيروت (دون تاريخ).
- 14 - ابن قاضي شهبه، بدر الدين، الكواكب الدرية في السيرة النورية (تاريخ السلطان نور الدين محمود بن زنكي)، تحقيق محمود زايد، دار الكتاب الجديد، ط 1، بيروت - لبنان، 1971.
- 15 - ابن كثير، الامام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي الدمشقي، ت (774) هـ :
البداية والنهاية في التاريخ، ج 12، دار الفكر العربي (دون تاريخ).
- 16 - محمد كرد علي، خطط الشام، المطبعة الحديثة بدمشق، 1925.
- 17 - المقرئزي، أحمد بن علي المقرئزي، ت (845) هـ :
السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة، الجزء الأول - القسم الأول، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1956.
- 18 - Elisseeff, Nikita, Nur-Addin-Ungrand-Prince Musulman, Tome I, II, III - 1967 (Institut Français de Damas).